مجلة ريحان للنشر العلمي تصدر عن مركز فِكر للدراسات والتطوير WWW.FIKER.OR
العدد الحادي عشر: ص ص 261-275 ISSN:2097-2709
06/06/2021

نظرية النظم الجرجانية نظير كفء للدراسات اللسانية الحديثة- دراسة مقارنة-

The theory systems is an efficient counterpart to modern linguistic studies – a comparative study –

الدكتورة: صفية بن زينة
أستاذة محاضرة قسم أ
مخبر نظرية اللغة الوظيفية (جامعة الشلف) – الجزائر
Doctor: Safia bin Zina
Professor Lecture Department Prof.
Laboratory of functional language theory (Chlef University) – Algeria
Safou_nour@hotmail.com

ملخص:

أحدثت فكرة النظم التي طوّرها عبد القاهر الجرجاني ثورة في الفكر العربي، وأعيدت قراءة التراث من منطلقها، ولا تزال الدراسات العربية إلى يوم الناس هذا تعالج فكر الجرجاني تحليلا وشرحا ونقدا، ولا غرابة في ذلك، فنظريته من أهمّ النظريات اللغوية العربية التي لامست اللغة والأدب والنقد جملة واحدة، استنبط الجرجاني من خلالها رؤى جديدة ونظرات قيّمة في التراث اللغوي، فتقاطعت أفكاره مع ما استجدّ اليوم في الدرس اللساني الحديث.

تأتي هذه الدراسة لتقارب بين ما توصّل إليه الجرجاني وأودعه في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وبين ما أنتجته النظريات اللسانية الغربية في مجال اللغة والنقد، من أجل إثبات حقيقة علمية هي أنّ الفكر العربي لا يقل شأنا عن نظيره الغربي في البحث ومكاشفة الظواهر اللغوية والأدبية، وإن اختلفت المعطيات والمنطلقات، فقد سعينا من خلال هذه الدراسة أن نقارب بين عدّة علماء غربيين وبين الجرجاني لنقف على نقاط التلاقي والافتراق بين الفكرين، والتميّز الذي فاق فيه الجرجاني أقرانه منذ ردح من الزمن.

الكلمات المفتاحية: الجرجاني، الدراسة، الدرس اللساني الحديث، الفكر

Abstract:

The idea of systems developed by Abd al-Qaher al-Jarjani caused a revolution in Arab thought, and the heritage was re-read from its starting point, and to this day the Arab studies still deal with the thought of al-Jarjani in analysis, explanation and criticism, and it is not surprising that his theory is one of the most important Arab linguistic theories that touched language, literature and criticism In one sentence, Al-Jarjani devised new insights and valuable insights into the linguistic heritage. His ideas intersected with what has emerged today in The modern linguistic lesson

This study comes to a convergence between what Al-Jarjani reached and deposited in his books, Evidence of Miracles and the Secrets of Rhetoric, and what The modern linguistic produced in the field of language and criticism, in order to prove a scientific fact that Arab thought is no less than its The modern linguistic counterpart in research and exposing linguistic and literary phenomena. The data and the starting points differed, as we sought through this study to rapprochement between The modern linguistic and Al-Jarjani to stand on the points of convergence and separation between the two ideas, and the distinction in which Al-Jarjani surpassed his peers a long time ago.

Key words:Al-Jarjani, the study, The modern linguistic lesson, the thought

مقدّمة:

تعدّ نظرية النظم من أبرز النظريات اللغوية العربية وأهمها في التراث النقدي، خصوصا وأنّ النقد شأنه شأن بقية العلوم يتطور بتطور الظروف وتغيراتها في كل عصر، مما يستدعي قيام نظريات على أنقاض النظريات السابقة فترفضها أو تتعمق في مبادئها ومقاييسها النقدية ومصطلحاتها أو تقف معها جنبا إلى جنب لتشكلا تيارا واحدا، غير أن هناك نظريات راسخة تتطور باستمرار تزامنا مع مختلف العصور؛ لأنها ربما اكتملت ونضجت في عصرها، ومنها "نظرية النظم" الجرجانيّة التي يقول عنها عبد العزيز حمودة :" فقد تكون النظرية إنتاج مجموعة عقول أو جيل واحد من العقول، وقد تكون أيضا إنتاج مجموعة عقول تنتمي لعدد من الأجيال" (حمودة، 2001).

تميّز عبد القاهر الجرجاني بمدرسة نقدية لغوية عربية، كانت محط أنظار عدد من الدارسين قديما وحديثا، وبلغ كلّ دارس مقصده من خلال جهوده المميزة؛ فهناك من اعتمد على الموازنة بينه وبين آخرين: كابن الأثير وابن جني والزمخشري والرازي، ومنهم من استقرت دراسته في حيز النظرية النظمية مع ربطها بالتراث لإظهار البلورة الخاصة التي صنعها عبد القاهر الجرجاني بدءًا من الجاحظ ومرورا بالقاضي عبد الجبار وغيرهم من العلماء، حتى استقرت عنده نظرية مستوية ومكتملة فأثمرت ثمارا ينع عطاؤها.

ولكن مثل هذه الدراسات تمثل قطبا أحادي الرؤية يستوجب منّا البحث عن قطب آخر يعد أكثر خصوبة وأمدّ ميدانا من الأول متوغلين بفهم وعمق في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لمعرفة أعماق البراعة من خلال نوافذ أخرى مضيئة، توضح عبقرية عربية سبقت منذ قرون ما انتهت إليه فلسفة الجمال في النّقد الحديث، بعمق نظراتها وآرائها التي أصبحت ذات قيمة عالمية خالدة (هلال، دت).

أهمية البحث: يمكن أن يكون هذا البحث – في نظري – دعوة للكثير من النقاد واللسانيين الذين ينخدعون بالمسميات والمصطلحات الغربية، الوافدة على البحث العربي، أن يعيدوا النظر أولا والحكم ثانيا فيما كتبه جهابذة الفكر العربي التراثي، ليكاشفوا أسراره، وكأنّه المولود الجديد والإبداع الذي طال انتظاره، كما أنّهم سيجدون فيها لا محالة ميدانا واسعا لعرض قدراتهم دون أدنى محاولة لغربلة هذه النظرية العربية العريقة وتطويرها.

المشكلة البحثية: لمّا وجدنا أنّ هناك تقاطعا بين فكر عبد القاهر الجرجاني اللغوي والنّظريات اللغوية الغربية الحديثة، ارتأينا أن ننطلق في دراستنا هذه من الإشكالية الآتية:

ما الرؤى اللغوية التي يتقاطع فيها الجرجاني مع اللسانيين الغربيين؟، وهل فعلا تعدّ نظرية النظم التي ابتدعها نظيرا كفؤا لما توصّل إليه اللغويون الغربيون اليوم؟

أهداف البحث: يؤكّد معظم الدارسين والباحثين في مجال اللسانيات بمختلف فروعها، أنّ عبد القاهر الجرجاني " يحقق في دراسته تشابها كبيرا في نقاط التلاقي بين عمله هذا وبين ما وصلت إليه الدراسات الحديثة والمعاصرة في المناهج الغربيـة" (عباس، 1999)، بناء على ذلك نروم من خلال هذه الدراسة أن نقرأ تراث الجرجاني قراءة متأنية، من أجل تأصيل النظرية التي صاغها في كتابيه الدلائل والإعجاز، ثمّ مقابلتها بالنظريات النقدية واللسانية الغربية.

المنهج المعتمد في الدراسة: اقتضت طبيعة الدراسة أن أعتمد على المنهج الوصفي، للوقوف على الآراء اللغوية للجرجاني ثمّ وصفها وتحليلها أولا، ثمّ استعنت بالمنهج المقارن لأوضح نقاط التلاقي والافتراق بين ما توصّل إليه الجرجاني، وما أفرزته اللسانيات الغربية ثانيا. كلّ ذلك وفق رؤية علمية موضوعية.

الدراسات السابقة: لا ندعي من خلال هذه الدراسة فضل السبق، وإنّما هناك عدّة دراسات تناولت الجرجاني من عدّة زوايا، وأبرز هذه الدراسات، تأصيل النظريات الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، لهدى صلاح رشيد.

1- جذور نظرية النظم:

ترجع الجذور اللغوية لنظرية النظم الجرجانية في تراثنا اللغوي إلى الكثير من الأفكار والمعطيات اللغوية التي تناولتها جهود علماء العربية الأفذاذ، فقد تحدث الجاحظ (255ه)عن إشكالية اللفظ والمعني في معرض حديثه عن البيان في (البيان والتبيين) (الجاحظ، 1983) وبعده ابن جني (392ه)عن العلامة اللغوية وفكرة الاتصال عندما حدّ اللغة بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (جني، 1983).

ومن أقدم النصوص التي عُثر عليها في كتب العربية وقد تحدّثت عن النظم ترجع إلى ابن المقفع ، حين قال " فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل وأن يقولوا قولا بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجاناً فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليل ووضع كل فص موضعه " (مطلوب، 1973).

ويعدّ عبد القاهر الجرجاني أول من عمل على تطوير نظرية نقدية لغوية شاملة، حيث حدّد مجموعة القوانين والقواعد التي بنى عليها نظريته الشهيرة. " فقد تكون النظرية إنتاج مجموعة عقول أو جيل واحد من العقول ، وقد تكون أيضا إنتاج مجموعة عقول تنتمي لعدد من الأجيال" (حمودة، 2001). وعليه فلم ينشئ عبد القاهر الجرجانى أفكاره من عدم، و" لكنه استطاع أن يطور إنجازات البلاغيين السابقين على مدى قرنين إلى نظرية متكاملة للنظم تقوم على تأكيد شبكة لعلاقات بين العلامات اللغوية أفقيا ورأسيا " (حمودة، 2001).

وممّا لا شك فيه أنّ عبد القاهر الجرجاني، استفاد من جهود علماء النحو السابقين أمثال سيبويه ومن جاء بعده، إلى القرن الرابع الهجري(ق 4ه) في بلورة نظريته، كما ساهم أبو علي الفارسي، وتلميذه ابن جني في إرساء القواعد اللغوية، التي بفضلها تمكن عبد القاهر الجرجاني أن يؤسس دعائم نظرية للفكر اللغوي قائمة على الفكر النحوي، كمنهج يبحث في العلائق التي تقيمها اللغة بين الكلمات.

وقد سبقه لفكرة النّظم كل من الجاحظ والرّماني والقاضي عبد الجبّار الذي نادى عبد القاهر الجرجاني بنظريته، " الذي رأى أنّ إعجاز القرآن في فصاحة لفظه المنظوم من ثلاث جهات من حيث وضعها، ومن حيث موضعها، ومن حيث حركتها الإعرابية، وهو بهذا يرى أنّ الجمال يتحقق بالقيم الموسيقية في خاصية اللّفظ وفي القيم الجمالية من حيث تشكيل اللّفظة وموضعها من السياق، وبالقيمة

المعنوية التي ترمز إليها حركة اللّفظة الدالة على موقع اللّفظة المعنوي أو المعنى الوظيفي لنمو الكلام" (الجويني، 1999)، فقد حصر الجرجاني الجمال في معاني النّحو .

وكأنّ القاضي عبد الجبّار هيّأ الفكرة لعبد القاهر الجرجاني، "وكأنّها بذرة تأخذ أول تكوينها، فإذا بها يتم نضجها عند عبد القاهر بالصورة الماثلة أمامنا" (كريشة، 1997) .فمن المفترض أن يكون كلامه من تفسير النّظم بتوخّي معاني النّحو هو الذي أوحى بوضع علم جديد عُرف بعده "بعلم المعاني" نتيجة حديثه عن النظم.

2- نظرية النّظم الجرجانية وأحدث النّظريات اللّغوية في العالم الغربي:

يقرّ عدد من النقاد ولا يختلف اثنان على أنّ عبد القاهر الجرجاني يتلاقى مع جميع النقاد العالميين الذين يؤكدون أن الكلمات رموز للمعاني، والذين يقولون: " إنّ الأديب يجب عليه أن يجعل ألفاظه محاكية لتجاربه، ورمزا لتلك التجارب، وهو ما تدعو إليه أحدث مدرسة في النّقد القائم على التذوّق الفقهي، المستند على علاقات التراكيب " (المنعم، 1998) . وعليه يجب تسليط دائرة الضوء على نقاط التقاطع بين عبد القاهر الجرجاني وهؤلاء النّقاد، من خلال المقارنة بين نظرية النّظم الجرجانية وأحدث النّظريات اللّغوية في العالم الغربي.

يعدّ المنهج البنيوي، الذي أسسه فردينان دي سوسير((**Ferdinand de saussur** ، (1857-1913م)، كردّ فعل على المنهج التاريخي في كتابه محاضرات في الألسنية العامة (**course in general linguistics**) من أهم المناهج الأساسية التي قامت على الجهود اللّغوية الحديثة، وممّا أثبتته الدراسات المقارنة وجود نقاط تلاقي بين منهج عبد القاهر الجرجاني ورواد المنهج البنيوي. ويمكن توضيح ذلك من خلال إجراء مقارنة التالية:

3. بين عبد القاهر الجرجاني وفردينان دي سوسير:

يتلاقى البحث الجرجاني وبنوية دي سوسير في العلاقة بين المنهجين؛ حيث يدرسان اللغة كنسق يتمثل في وجود السياق الذي تجري فيه اللّغة، وكنظام يتكون من مجموعة من البنى وأي تغيير في البنية الواحدة يحدث تغييرا في النظام ككل، وهو ما تعرّض إليه عبد القاهر الجرجاني في مفهومه للتعليق من خلال قوله:" معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض... وللتعليق فيما بينها طرق معلومة " (الجرجاني، 1995) أو نظام العلاقات الذي يربط الظواهر ببعضها.

وأكدّ هذه الفكرة دي سوسير بقوله: " إنّ اللّغة منظومة لا قيمة لمكوناتها إلا بالعلاقة القائمة بينها، وبالتالي، لا يمكن للساني اعتبار مفردات لغة ما كيانات مستقلة، بل إنّ لزاما عليه وصف العلاقات التي تربط هذه المفردات" (سوسير، 1984)، وهو ما تنبّه إليه عبد القاهر الجرجاني في مواضع عدة من كتابه دلائل الإعجاز كقوله:"اعلم أنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللّغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمَّ بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد " (الجرجاني، 1995). وعليه فإن جذور الفكرة واضحة في منهج عبد القاهر الجرجاني في (نظرية النّظم)، إذ يسمّي النّظم (النظام)، والترتيب، والبناء، ممّا يفسر أنّ جهود عبد القاهر قد فاقت ما جاء به دي سوسير بعامل السّبق والابتكار (عباس، 1999) .ويجمع هذه التسميات في حديثه عن التعليق بقوله:" لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتّى يعلق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك " (الجرجاني، 1995) . وبالتالي فإنّ ما جاءت به المدرسة البنوية بريادة دي سوسير في القرن العشرين كان موجودا في التراث العربي ممثلا في فكر عبد القاهر الجرجاني منذ زمن مبكر، ممّا يؤكد عبقريته رغم الفارق الزمني الكبير بينهما.

ومن المباحث اللغوية التي يلتقي فيها العالمان؛ ظاهرة العلامة وقد خصّها عبد القاهر الجرجاني بقوله:" إن اللّغة تجري مجرى العلامات والسِّمات ولا معنى للعلامة أو السِّمة حتّى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه " (الجرجاني، 1995) .أمّا دي سوسير فهو مؤسس علم العلامات ويقول في هذا الشأن:" يمكننا تصور علم يدرس حياة العلامات في صور الحياة الاجتماعية، وهو يُشكل جانبا من علم النّفس الاجتماعي، وبالتالي علم النّفس العام. إننا ندعوه**Simiology**"" يدلّنا على كنه وماهية العلامات والقوانين التي تنظمها... وما الألسنية إلاّ جزء من هذا العلم العام "..(سوسير، 1984)، حيث جعل السيمولوجيا الأصل واللسانيات الفرع، عكس ما يقرّ به رولان بارت.

ويتفق عبد القاهر الجرجاني مع دي سوسير في اعتباطية العلاقة التي تحكم العلامة اللسانية، فدي سوسير يرى:" أنّ الرابط الجامع بين الدال والمدلول اعتباطي، وأنّ العلامة هي مجموع ما ينجم عن ترابط الدال والمدلول" والمقصود أنّه لا معنى للعلامة في ذاتها، وهو تفسير يوافق قول عبد القاهر الجرجاني: " اللغة تجري مجرى العلامات والسمات، ولا معنى للعلامة أو السمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه " (الجرجاني، 1991)، إذ تتطابق فكرة العالمين إلى حدّ كبير في كثير من

المحطات التعليلية المتعلقة بتقنيات الدرس اللغوي .لنخلص أن لعبد القاهر الجرجاني قصب السبق قبل ثمانية قرون عمّا جاء به دي سوسير في بداية القرن العشرين.

4- بين عبد القاهر الجرجاني ونوام تشومسكي:

من خلال نظرية النظم أدرك عبد القاهر الجرجاني مدى أهمية تكامل المستويات اللغوية المختلفة ويظهر ذلك في قوله :" معلوم أنّ ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يدعو ثلاثة أقسام تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما (الجرجاني، 1995)، حيث " يستطيع الدارس أن يسمي كلّ هذا الجهد عند عبد القاهر في هذه المستويات بالتركيب اللّغوي، الذي يراعي النمط الخاص بالعلاقات داخل النّظام اللّغوي، الذي يحافظ على الملاءمة التي تعني العلاقة التي يقيمها كلّ مستوى مع غيره من المستويات داخل النظام الواحد" (عباس، 1999) .ونجد الجرجاني يمنح التركيب اللّغوي عددا من العلاقات النّحوية التي تنتج عنها المعاني التي يراها في دلالات الكلم، وبهذا يكون قد انتهج المنهج الذي تقوم عليه المدرسة التوليدية التحويلية بزعامة نوام تشومسكي صاحب كتاب (البنى التركيبية) "**Synthetic structures**"الذي نشره سنة 1957م، و يضم أهمّ المبادئ التي تقوم عليها المدرسة اللغوية الأمريكية. والمطلع على منهج الجرجاني، بإمكانه "أن ينوّه باتّساع نظرية عبد القاهر بشموليتها وتناولها المنهجي للدرس الأدبي واللّغوي معا، وفي احتوائها للقاعدة النّحوية وتطويعها في معالجة الخطاب الأدبي بقطبيه الشعري والنثري على السواء والاعتماد على هذه الرؤية في المنظور النّقدي قاطبة " (عباس، 1999).

والملاحظ هو توافق الأفكار وتقاطعها بشكل كبير بينهما؛ كالبينية الخفية والبنية الظاهرية للجملة عند الجرجاني ويقابلها البنية العميقة والبنية السطحية عند تشومسكي. كما يميز الجرجاني بين ظاهرة التقديم على نيّة التأخير؛ وبين التقديم الذي هو ليس على نيّة التأخير وجعلها أساسا من أسس نظرية النظم ، يقابله عند تشومسكي مفهوم التحويل.

أمّا مفهوم التوليد عند تشومسكي فهو الجانب الإبداعي؛ حيث أن اللغة هي الاستخدام اللامحدود لموارد محدودة. فبإمكان الشخص الذي يتكلم لغة مجتمعه أن ينتج ما لا حصر له – عدد غير متناه – من الجمل والتعابير اللغوية خلال عدد محدود من الحروف والكلمات. المفهوم نفسه تطرق إليه عبد القاهر الجرجاني، من خلال حديثه عن المعاني النحوية، أي الوظيفة التي تؤديها الكلمة في التركيب،

وأي اختلاف في التركيب يؤدي إلى اختلاف في المعنى. وهو ما عبر عنه بـ " التوليد النحوي" الذي يأتي نتيجة الوضع الدقيق للكلمة في الجملة ممثلا لذلك بقوله: " فلينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، وزيد هو المنطلق... ولننظر في الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك إن تخرج أخرج، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج. كما يمكن النظر في الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، وجاءني وقد أسرع " (الجرجاني، 1995). فقد تمكّن بألفاظ قليلة من توليد معاني نحوية كثيرة نتيجة اختلاف موضع الكلمة في الجملة، وبإدراك المعاني الدقيقة للكلمة في السياق، وهي الخاصية التوليدية عند عبد القاهر الجرجاني.

تنبّه الجرجاني إلى ثنائية البنية اللغوية المؤلفة من لفظ ومعنى حيث قال: "إنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ، من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وإنما تتوخى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك. فإذا تمّ لك ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها. وإنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل ستجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها. وإنّ العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق" (الجرجاني، 1995).

والفكرة ذاتها نجدها عند تشومسكي من خلال ثنائية البنية السطحية (الظاهرة): وهي الجانب المنطوق من اللغة (أي الألفاظ)، والبنية العميقة، وهي البنية الخفية المجردة في الذهن قبل النطق بها(أي المعاني المرتبة) وبمجرد نطقها تتحول هذه البنية العميقة إلى بنية سطحية.

وعليه تظهر مدى براعة عبد القاهر الجرجاني وعبقريته الفذّة في تأكيده أنّ بنية اللغة إنما تبدأ في الذهن بترتيب المعاني، وصولا إلى دقة اختيار الألفاظ المنطوقة وترتيبها. وبالتالي فقد كان " التفوّق حليف عبد القاهر الذي جعل من النّص الأدبي ميدانه الفسيح في استدراج الفرضيات، واستنتاج القاعدة أو النظرية، وخصّ بجهوده (نظرية النّظم)، التي تتوافق في اتساعها لتشمل الدراسة الحديثة في أدب (الأسلوبية) وتثبت علاقتها بالنّظم" (عباس، 1999).

5. نظرية النّظم وعلاقتها بعلم الأسلوب:

يصعب تحديد تعريف جامع مانع لمفهوم الأسلوب شأنه شأن الكثير من المصطلحات، والمعروف

" أنّ تحديد الأسلوب يعدّ من أبرز قضايا الأسلوبية المعاصرة، حيث قدّمت في هذا الشأن جملة من الصيغ النظرية المتباينة سعيا لضبط هذا المفهوم، الذي أصبح موضوع هذا العلم اليافع، الذي نشأ في حضن اللسانيات، وإن كانت جذوره في البلاغة القديمة " (مشبال، 2001). غير أنّ جذوره ضاربة في أعماق التراث العربي من خلال نظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني التي كانت " قد أرست أسسها على هذا المفهوم نفسه؛ لأنّها تعتمد –كما سبق الذكر– على العلاقات اللّغوية التي يأتي بها التعبير في المقام الذي يقتضيه الكلام، ولا يفهم من نظرية النّظم: أنها هي الأسلوب وحده، كما ذهب إلى هذا الرأي أحمد الشايب حين قرر أنّ النّظم يقابل الأسلوب، وآثر في استعماله مصطلح الأسلوب على مصطلح النّظم "(عباس، 1999). فعبد القاهر الجرجاني يجعل مفهوم النّظم أعمق من مفهوم الأسلوب.

لقد عدّ الجرجاني " الأسلوب بأنّه وسيلة في الاقتداء، وطريقة في الكتابة تختلف من كاتب إلى كاتب، أو من شاعر إلى آخر. وقد حدّد الأسلوب في النمط الشكلي من التعبير حين وضع السمات العامة في أشكال القول وطرق التعبير كالتي يتقنها الشعراء "(عباس، 1999)، وهو ما عبّر عنه بقوله :" واعلم أنّ الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعرُ في معنى له وغرض أسلوبا– والأسلوب: الضرب من النّظم والطريقة فيه– فيعمد شاعرٌ آخر إلى ذلك الأسلوب، فيجيء به في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال قد احتذى على مثاله " (الجرجاني، 1995) .وبالتالي فإنّ الأسلوب هو طريقة الكتابة أو الإنشاء في مفهوم عبد القاهر .

وما دام الأسلوب هو موضوع الأسلوبية التي يقابلها مصطلح "الصياغة" عند عبد القاهر الجرجاني في نظريته. ويظهر ذلك في قوله:" ومعلوم أنّ سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب، يصاغ منها خاتم أو سوار، فكما أن محالا، إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العلم وتلك الصفة، كذلك محال أن تعرف مكان الفضل والمزيّة في الكلام أن تنظر في مجرد معناه. كما لو فضّلنا خاتما بأن تكون فضة هذا أجود أو فضة أنفس، لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام وهذا قاطع فاعرفه " (الجرجاني، 1995). فقد جعل صياغة الكلام مقابلة لصوغ الخاتم أي صناعته؛ لأنّ الصائغ يبحث في جودة الخاتم

وقيمة مكوّناته؛ فيكتمل الجمال لديه إذا اجتمعت جودة فضته مع جمال صورته، والأمر ذاته في العمل الأدبي تتحقق جمالية باتّحاد اللفظ والمعنى، ممّا يجعلنا نرجح فكرة أنّ فكرة الصياغة في النّظم تقابلها فكرة الأسلوب في الأسلوبية.

6. بين عبد القاهر وجون ليونز:

إنّ التوجّه الأسلوبي الذي ينتهجه جون ليونز في ضرورة دراسة النص الأدبي دراسة بلاغية دلالية من خلال قوله: " إنّ تحديد أي نص أدبي، لأي أديب لا يعدّ هدفا في حد ذاته، وإنّما هو مرتبط ارتباطا وثيقا بدراسة خصائصه التي تحدث أثرا معينا في القارئ، فإنّ الأسلوبية بهذا المعنى تندمج بما يسمى قديما بالبلاغة .... وبالإمكان وضع تمييز بين علم الدلالة والأسلوبية بناء على نوع المستعمل " (عباس، 1999)، والملاحظ أنّ التوجه نفسه قد اعتمده عبد القاهر الجرجاني في زمانه عندما ربط دراسة النّظم بالمعرفة البلاغية كونها تخدم القارئ في العملية النّقدية التي يجريها على العمل الأدبي، وعدم معرفتها يترتب عنه الخطأ في التمييز بين نظم ونظم، ويؤكد ذلك في قوله:" لا جرم أنّ ذلك قد ذهب عن معرفة البلاغة، ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها، وصدّ أوجههم عن الجهة التي هي فيها، والشق الذي يحويها... وليت شعري إن كانت هذه أمورا هينة، وكان المدى فيها قريبا، والجدا يسيرا، من أين كان نظم أشرف من نظم؟ وبم عظم التفاوت؟، واشتدّ التباين؟ وترقى الأمر إلى الإعجاز؟ " (الجرجاني، 1995). وهذا المنعطف يعدّ نقطة تلاقي بل تطابق مع منهج عبد القاهر.

7. بين عبد القاهر وجون ميري:

عندما تحدّث عبد القاهر الجرجاني عن أصالة الأسلوب مقابل الاحتذاء فقد اعتمد على الجانب التطبيقي، وقد سلك جون ميري الطريق نفسه؛ فاختيار الجرجاني لبيت الفرزدق (الجرجاني، 1995) في قوله:

أترجو ربيع أن يجيء صغارها بخير وقد أعيا كبيرها صغارها

واحتذاء البعيث في قوله:

أترجو كليب أن يجيء حديثها بخير، وقد أعيا كليبا قديمها

والفرزدق معروف بأسلوبه الخاص والمميز، والغرض من اختياره يتمثل في الأسلوب بملامح صاحبه، فقد عُرف الفرزدق بملكته الشعرية المتفردة ذات التراكيب الخاصة المتداخلة تشكّلها طبيعة

الشاعر وأحاسيسه وكأنّه ينحت من الصخر – كما يقال عنه–. كما اختار جون ميري هو الآخر شاعرا متميزا بأسلوبه المعروف والشهير... خصوصا وأنّ الشعر ينماز بسمة الجمالية(التعبيرية)، وتظهر ملامح صاحبه بشكل مكثف من خلال الأسلوب، وبنائه (زهرة، 2005) .

ويجعل جون ميري العلاقة وطيدة بين الأفكار والعاطفة ودلالات الأسلوب عليها من خلال قوله: " بأنّ الأفكار في الأدب هي دائما خدم للعاطفة " (زهرة، 2005)، وهي فكرة سبقه إلى تأصيلها عبد القاهر الجرجاني في قوله:" وإنّك إذا فرغت من عملية ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم المعاني" (الجرجاني، 1995). فالألفاظ مرهونة بالمعاني المرتبة في النّفس، وعليه نخلص أن فكرة جون ميري ذاتها قد سبق وأن وضع حجر أساسها الجرجاني.

8. بين عبد القاهر الجرجاني و فيرث:

أولى العرب القدامى عناية بالغة الأهمية للسياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي؛ لأهميتهما في بلوغ المعنى المراد من التركيب. كما أنّ اهتمام الغربيين به في القرن العشرين، لم تكن فكرة جديدة؛ وإنّما تعدّ امتدادا للفكر اللغوي العربي القديم أمثال: الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني، غير أن فيرث يرى: " أنّ دراسة اللغة بشكل عام، وكذلك دراسة عناصرها من كلمات وأصوات وجمل هي دراسة دلالية لمعاني هذه العناصر " (أحمد، 1989). هذه الفكرة ذات الأصل العربي أسّس لها فيرث وأتباعه في شكل نظرية قابلة للتطبيق على جميع أنواع المعنى، وفق قواعد وأسس تؤهلها لتكون مع غيرها من النظريات التي تتناول المعنى بالتحليل والتفسير .

نجد عند الجرجاني تقاربا بين مفهومي النظم والسياق؛ لأنّ النّظم هو تأليف الكلم في سياق محدّد يقتضيه علم النحو (متوخًّى فيه معاني النحو)، ويقول عن السياق أيضا: " اعلم أنّ ليس النّظم أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخلّ بشيء منها" (الجرجاني، 1995). فهو لا يقصد بالنظم سوى تأليف الكلام بحسب أبواب النحو المختلفة .فالكلم لا تأخذه مواقعها في السياق عفوا، وإنّما من خلال إقامة علاقات معنويّة بينها.

وقد سار (فيرث) على نهج الجرجاني، عندما قال في تعريفه لنظرية سياق اللفظ والمعنى: " أنّه

علاقة بين العناصر اللغويّة، والسياق الاجتماعي، بحيث تتحدّد معاني تلك العناصر وفقا لاستعمالها في المواقف الاجتماعيّة المختلفة " (أحمد، 1989)، ويعتمد عبد القاهر الجرجاني على مصطلحات تشير إلى السياق في شرح نظريته، مثل: الضّم، والترتيب، والتركيب، والتأليف، والنسق، والسياق... وغيرها. فيشير إلى أنّ " الكلم يترتب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النّفس، وهذا ما عرف بترتيب المعاني مع الألفاظ، ولمّا كانت المعاني لا تبين إلا بالألفاظ، وكان لا سبيل لها إلا بترتيب الألفاظ، فكفوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ، وقالوا: " هذا لفظ متمكن وذلك لفظ نابٍ " (الجرجاني، 1995). نلاحظ أنّ عبد القاهر الجرجاني لا يفصل نسق الألفاظ عن نسق المعاني، ولا القصد الذي يكون سببا في إنشائهما، ولذلك نجد أن المعاني النفسية لا يمكن أن تنفصل عمّا يشير إليها في السياق .

إنّ ما يؤكد عليه عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وبإلحاح، أن لا معنى لتفاضل الكلمات دون النظر إلى السياق الذي وردت فيه، إذ يقول: " وهل يقع في وهم- وإن جهد- أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم... وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها " (الجرجاني، 1995). ويبقى دوما مصرا على فكرته من خلال قوله: " أنّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكن نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقا معناها بمعنى ما يليها " (الجرجاني، 1995). فمن منطلق السياق وعلى أساسه نتمكن بالحكم على اللفظة بفصاحتها أو عدم فصاحتها.

وإذا حاولنا عرض آراء بعض العلماء أمثال الناقد الانجليزي (إ.أ ريتشارد) الذي نجده يتحدث عمّا جاء به عبد القاهر الجرجاني دون أن يضيف شيئا يذكر، يقول: " ومعنى أي لفظة لا يمكن أن يتحدد إلا من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من الألفاظ " (العشماوي، 1984). وكذلك إلى قول (ت. س. إليوت) الذي لم يأت بشيء جديد عمّا أتى به الجرجاني من السياق: " إنّ الكلمات الواردة في السياق كلّه بالإضافة إلى العلاقات الناشئة من معنى الكلمة في السياق الذي وردت فيه ومعانيها الأخرى التي اكتسبتها من استعمالاتها وارتباطات السياق كثيرة أو قليلة " (العشماوي، 1984) .

وبناء على ما سبق يمكننا الجزم بصحة ما قاله تمام حسان: " إنّ دراسة عبد القاهر للنظم، وما يتصل به تقف بكبرياء، كتفا إلى كتف مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب ، وتفوق معظمها في مجال

فهم طرق التركيب اللغوي، هذا مع الفارق الزمني الواسع، الذي كان ينبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثة على جهد عبد القاهر" (حسان، 2006). وعليه فإن نظرية السياق ليست وليدة الفكر الغربي وإنما ذات امتداد عربي (على حد ترجيحنا). ويسانده الرأي محمد مندور بقوله: " إنّه يستند إلى نظرة في اللغة أرى فيها ويرى معي كل من يمعن النظر أنها تتماشى مع ما توصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، ونقطة البدء نجدها في آخر (دلائل الإعجاز) حين يقرر المؤلف ما قرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات، وعلى هذا الأساس بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوي" (مندور، 1988).

وتعكس نظرية النظم – إلى حد ما – مدى عبقرية عبد القاهر الجرجاني؛ حيث تميز بالحنكة والذكاء في تأسيسه لنظريته، " فمنهج هذا الفكر العميق الدقيق هو منهج النقد اللغوي، منهج النحو، على أن نفهم من النحو أنه العلم الذي يبحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء" (مندور، 2004). فبفطنته المتميزة استطاع أن يحدّد معالم واضحة توصّل إليها في مجال النقد اللغوي وسبق بها النقد الحديث – الغربي والعربي –.

خاتمة:

خلصت الدراسة إلى نتيجة مفادها؛ أنّ عبد القاهر الجرجاني تمكن بعبقريته الفذّة من إثبات ما توصلت إليه الدراسات الغربية الحديثة بكل وسائلها العلمية المتطورة، من خلال تحليلاته العميقة وجهوده القيمة التي تعكس مدى قوتها وقدرتها على الصمود طوال هذه الفترة الزمنية، لتثبت بكل جدارة واستحقاق نفسها كنظرية نقدية لغوية لها كيانها المستقل في النقد الحديث، بدءًا من منهجه في النّظم المرتكز أساسا على النّقد الأدبي بتحليل البنية اللّغوية التي تصنعها قواعد التركيب ومعاني النّحو، حيث تمكن من بلورة الخطوات النّقدية النّحوية بعد استيعاب وفهم عميقين يتمثلان في منجزات عبد القاهر الجرجاني من خلال نظريته التي تلتقي في أسسها مع كثير من نظريات اللغويين المحدثين الغربيين، ولاحظنا أنّ هذا التلاقي وصل إلى درجة التطابق، وكأنّهم اطّلعوا على دلائل الإعجاز ودرسوا أسرار البلاغة، ثمّ حذوا حذوه في تأليف كتبهم اللغوية.

قائمة المراجع:

ابن جني. (1983). الخصائص. عالم الكتب: القاهرة.
أحمد مطلوب. (1973). عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده. الكويت: وكالة المطبوعات.
أحمد, ي. (1989). الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة. عالم الفكر , 81-82.
الجاحظ. (1983). البيان والتبيين. بيروت: دار الكتب العلمية.
الجرجاني. (1991). أسرار البلاغة. بيروت: دار الجيل.
الجرجاني. (1995). دلائل الإعجاز. بيروت: دار الكتاب العربي.
تمام حسان. (2006). اللغة العربية معناها ومبناها. القاهرة: عالم الكتب.
خفاجي عبد المنعم. (1998). دراسات في الأدب المقارن. القاهرة: دار الطباعة المحمدية.
طه أبو كريشة. (1997). النقد العربي التطبيقي بين القديم والحديث. مصر: لوجمان.
عبد العزيز حمودة. (2001). المرايا المقعرة. الكويت: مطابع الوطن.
علي زهرة. (2005). الأسلوب بين عبد القاهر وجون ميري. القاهرة: عالم الكتب.
غنيمي هلال. (دت). النقد الأدبي الحديث. بيروت: دار العودة.
فردينان دي سوسير. (1984). محاضرات في الألسنية العامة. تونس: دار النعمان .
محمد زكي العشماوي. (1984). قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث. القاهرة: دار النهضة.
محمد عباس. (1999). الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني. دمشق: دار الفكر.
محمد مشبال. (2001). البلاغة ومقولة الجنس الأدبي. عالم الفكر ، 35-55.
محمد مندور. (2004). النقد المنهجي عند العرب. القاهرة: دار نهضة مصر.
محمد مندور. (1988). في الميزان الجديد. تونس: مؤسسات عبد الله بن عبد الله.
مصطفى الجويني. (1999). البلاغة العربية تأصيل وتجديد. مصر: منشأة المعارف.